﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٥٧﴾ [الصافات: 54 - 57]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

ينبغي للمؤمنِ أن يحمدَ اللهَ تعالى على نعمةِ الهدايةِ للإيمانِ، والنَّجاةِ مِنَ العذابِ

لمّا حكَى المؤمنُ في الجنَّة لأهل رفقتِهِ ما كان مِن قرينِهِ الكافر في الدُّنيا من تشكيكِهِ في البعث والحساب، وما يستلزمُهُ من الكفرِ باللهِ تعالى ودعوته إيّاه إلى تركِ الإيمان إلى الكُفر؛ عرض المؤمنُ على أصحابِهِ في الجنَّة إن يطَّلِعوا معه على صاحبِهِ في النّار؛ لما عَلِم من موتِهِ على الكفرِ، فاطَّلعوا، واطَّلع معهم، فرآه يقاسي العذابَ الأليم في قعر جهنَّم، فوبَّخه على إصرارِهِ على الكفرِ الَّذي آلَ بِهِ إلى سواء الجحيم، وحَمِد اللّه تعالى على نعمةِ هدايتِهِ إلى الإيمان، ونجاته من ذلك الجحيم وعذابه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾: (طلع) أصلٌ واحِدٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ عَلَى ظُهورٍ وبُروزٍ، يُقالُ: طَلَعَتِ الشَّمْسُ طُلوعًا ومَطْلَعًا، والمَطْلِعُ: مَوْضِعُ طُلوعِها[1]، واطَّلَعَ عَلَى الشَّيْءِ، وطَلَعَ عَلَى الأمر يَطْلُعُ طُلوعًا: عَلِمَهُ، وطالَعَهُ إيّاه، فَنَظَرَ ما عِنْدَهُ[2]، والمَطْلِعُ: موضعُ الطُّلوعِ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٍ﴾ [الكهف: 90]، وعنه استُعيرَ: طَلَعَ علينا فلانٌ، واطَّلَعَ، ومعنى: ﴿هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾[3]، أي: هل تحبّون أن تطَّلعوا في النّار؛ لتروا ذلك القرينَ، وتعرفوا نعمةَ اللّهِ تعالى علينا فيما نحن فيه؟.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طلع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (طلع).
(3) الراغب، المفردات: (طلع)، ص: 522.

2) ﴿سَوَآءِ﴾: (سوي) أصلٌ يَدُلُّ عَلى استِقامَةٍ واعتِدالٍ بَيْنَ شَيئَينِ[1]، وأصلُ السَّواء من التَّماثُل، و(سواء) في القرآن على خمسة أوجه: **الأوَّل:** العدلُ، قال اللَّه: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: 64]، أي: عدل، وهو قوله: (لا إلَهَ إلا اللّه)، **الثاني:** الوسط، قال: ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾، وهو المقصود في هذه الآية، وقال: ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾، أي: في أحكم البين، فشبَّهه بوسط الطَّريق، وقيل: السّواء هاهنا بمعنى العدل، **الثالث:** الأمر البيِّن قال تعالى: ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ [الأنفال: 58]، **الرابع:** المعادلةُ والمماثلةُ، ومِنهُ قَولُهُ تَعالى في البَقَرة: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: 6]، وفي الحج: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ [الحج: 25]، وفي الرّوم: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم: 28]، وفي المُنافقين: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: 6]، **الخامس:** القصدُ، كما في قوله تعالى: ﴿أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: 22][2]، وكلُّها معانٍ تؤكِّد شدَّةَ تمكُّنِ عذابِ الجحيم من القرين الكافر، وتمام افتضاحِهِ وخزيه فيه.

3) ﴿لَتُرْدِينِ﴾: (ردي) أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلى رَمي أو تَرام وما أشْبَهَ ذَلِكَ[3]، والرَّدى: الهلاكُ، رَدِيَ بِالكَسرِ يَردى رَدًى: هَلَكَ، والرَّديُّ: الهالِكُ، وأرْداهُ اللّهُ، وأرْدَيْتُهُ، أي: أهلكتُه، وفي التَّنْزيلِ العَزيز: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾، قالَ الزَّجّاجُ: مَعْناهُ: لتُهْلِكُني، وفيهِ: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: 16][4]، فالمقصودُ بقوله: ﴿لَتُرْدِينِ﴾: توَرِّطُني معك في الهلاك، وتتسبَّب لي فيه.

4) ﴿نِعْمَةُ رَبِّي﴾: (نعم) فُروعُهُ كَثيرَةٌ، وهي عَلى كَثْرَتِها راجِعَةٌ إلَى أصْلٍ واحِدٍ يَدُلُّ عَلَى تَرَفُّهٍ وطيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ[5]، والنِّعْمَةُ: الحالةُ الحسنةُ، والنَّعْمَةُ: التَّنَعُّمُ، والنِّعْمَةُ للجِنْسِ، تقال للقليلِ والكثيرِ، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ﴾ [النحل: 18][6]، ومعنى: ﴿نِعْمَةُ رَبِّي﴾ هنا عصمتُهُ مِنَ الضَّلال، و"هِدايَتُه، والتَّوفيق لِلإيمانِ بِالبَعثِ بَعدَ المَوتِ"[7].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(2) ابن الجوزي، نزهة الأعين، ص: 261.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ردي).
(4) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 306، وابن منظور، لسان العرب: (ردي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).
(6) الراغب، المفردات: (نعم).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 550.

5) ﴿ٱلْمُحْضَرِينَ﴾: (حضر) إيرادُ الشَّيءِ، ووُرودُهُ ومُشاهَدَتُهُ، وقَد يَجيءُ ما يَبْعُدُ عَن هَذا، وإنْ كانَ الأصلُ واحِدًا، ويُقالُ المُحاضَرَةُ المُغالَبَةُ، وحاضَرْتُ الرَّجُلَ: جاثَيْتُهُ عِنْدَ سُلْطانٍ أوْ حاكِمٍ[1]، فقد يأتي الحضورُ في القرآن بمعانٍ عديدةٍ منها: الكتابةُ والاستيطانُ والحلول والمجاورة والسَّماعُ، وأمّا معنى ﴿ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ هنا؛ فقد جيءَ بمعنى (المُعذَّبين)[2]، فهم "الذين أُحضِروا العذابَ"[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أصحابُ النُّفوسِ المطمئنَّة يندبون بعضَهم لمشاركة أسبابِ السَّعادة

من تمام نعيم أهلِ الجنَّة أنَّهم يتسامرون، فيقول أحدُهم: هل أنتم أيُّها الرِّفاقُ ناظرون معي إلى مصير القرينِ الكافرِ، لنرى أين استقرَّ بهِ؟ فألقى بِنَظرِهِ إلى حيثُ النّارُ وأهلها، فرأى صاحبه في وسط الجحيم، يأخذُ مكانًا متمكِّنًا منها، فلقد كان داعيةً مِن دُعاة السّوء، ورأسًا مِن رؤوسِ الكُفرِ؛ فيتبرَّأ منه في الآخرة كما تبرَّأ منه في الدُّنيا غير راحم لهُ؛ إذ كان لولا رحمةُ اللّهِ بهِ، وإحسانه إليه – لو اتَّبَعه، وأخذ طريقَه معهُ – أن يكونَ قرينَه في هذا البلاء الذي يعانيه، وهذا العذابُ الَّذي يُكتوى بناره[4].

وترشدُ الآيات الكريمة إلى أنَّ التَّحدُّث بنعمة اللّه تعالى مشروعٌ ومأمورٌ بهِ؛ بشرط أن يكونَ المقصودُ به الثَّناءَ على اللّه تعالى لا الافتخارَ على عباد اللّه، وإلى أنَّ نجاةَ الإنسانِ من عذابِ اللّه من أكبرِ النِّعم[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ: ﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ ودلالته:

التَّراكيبُ الكريمةُ تتَّسِم بالوثاقةِ عبرَ سياقَيها القريب والبعيد جميعًا

جملة: ﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ "بدلُ اشتمالٍ مِن جملة ﴿قَالَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حضر).
(2) ابن الجوزي، نزهة الأعين، ص: 264.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 45.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 984.
(5) ابن عثيمين، تفسير سورة الصافات، ص: 133.

قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ﴾ [الصافات: 51]؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ المحكيَّ بها هو ممّا اشتمل عليه قولُهُ الأوَّل؛ إذ هو تكملةٌ للقول الأوَّل"[1]، وهذا بالنِّسبة للسّياق الممتدِّ، أمّا السياقُ المباشر؛ ففُصِلت ﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ عن جملة: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾؛ لكمالِ الانقطاعِ بينهما، فالسّابقة من قولِ القرين الكافرِ حين أنكرَ البعثَ في صورةِ استفهام ﴿أَءِذَا مِتۡنَا﴾، واللّاحقة من كلام المؤمن في الجنَّة، وهو يخاطب رفقاءَهُ، وبذلك تتَّسع النَّظرة؛ لتستوعبَ ترابطَ التَّراكيب عبر سياقيه – القريب المباشر والبعيد الممتدِّ – جميعًا؛ لتتجلّى وثاقةُ التَّراكيب القرآنيَّة الكريمة.

وجهُ مرجعِ الضَّميرِ في ﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم﴾:

من ثراءِ الدَّلالات القرآنيَّة الكريمة تـعـدُّدُ مـراجـعِ الضَّمير الواحد

للعلماء في ضمير قائل: ﴿هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ آراءٌ كلُّها معتبرةٌ، منها: أنَّ قائلَهُ هو المؤمن المصدِّق بالبعث، يقول ذلك لأهل رفقته في الجنَّة في سياق حكايتِهِ لهم ما دار بينَهُ وبينَ قرينِهِ المُنكر للبعثِ أيّام الدُّنيا، ويدعوهم للاطِّلاع على ما يقاسيه القرينُ من عذابٍ في الآخرة، كما جاء بعده: ﴿فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ "يريد بذلك صدقَه فيما حكاه"[2]، أو أنَّ قائلَهُ هو "الله تعالى لأهل الجنَّة، وقيل: هو مِن قولِ الملائكةِ"[3]، "وعلى أنَّ القائلَ هو الله أو بعض الملائكة يكون المعنى: هل تحبّون أن تَطَّلعوا على أهل النّارِ؛ لأُريَكم ذلك القرين، فتعلموا منزلتَكم مِن منزلتِهم؟"[4]، "يدعوهم إلى كمال السُّرور بالاطِّلاع إلى النّار لمشاهدة ذلك القرين ومخاطَبَتِهِ"[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 117.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 418.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 82.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 418.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 334.

الغرضُ من الاستفهامِ في قوله: ﴿هَلْ﴾:

﴿هَلْ﴾ في قوله: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ استفهاميَّةٌ، مستعملةٌ في العرض والتَّحضيض، ومن بلاغة خروجها هنا عن طلب الفَهم إليهما تحاشي أمْرِ أهلِ الجنَّة أمرًا ظاهرهُ الإلزامُ والقهر، لو قيل: اطَّلِعوا، فالجنَّة دارُ النَّعيم، فحقَّقت ﴿هَلْ﴾ الغاية، وتحاشَتْ أذيَّة الإلزام.

من أدبِ أهلِ الجنَّةِ مع بعضِهم الطَّلبُ بغيرِ صيغةِ الأمرِ الصَّريح

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة:

في التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ في سياق العرض والتَّحضيض - دون الفعلية (تطلعون) - إلماحٌ إلى لطيفةٍ رقيقةٍ، هي رغبةُ المتكلِّم وإلحاحُهُ عليهم في الطَّلب حتى كأنَّه رآهُ واقعًا ثابتًا؛ فذلك يُسعده، ويفعمُهُ غِبطةً بأنَّ موعودَ الله تعالى له قد تحقَّق، وأنَّ صبرَهُ هنالك في الدُّنيا على تكذيب الكافر قد أثْمَرَ، وأنَّ اللهَ تعالى قد عوَّضه عن قرين السّوء أهلَ رفقةٍ صالحة، وأنَّه الآن صار يشاركُهم فرحتَهُ وغِبطتَهُ.

دوامُ سعادةِ المؤمن في الجنَّة بتحقُّق وعد الله تعالى له

معنى الضَّمير: ﴿أَنتُم﴾، ونكتة تقديمه:

في صوغ جملة التَّحضيض ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ اسميَّةً إتاحةٌ لِتقديم ضميرِ المخاطَبين ﴿أَنتُم﴾؛ وذلك لِما يُفيدُهُ التَّقديم من العناية والاهتمام إلى حدٍّ يُداخل خصيصةَ القصرِ، وأنَّهم هم فقط المعنيّون بالتَّحضيض على الاطِّلاع، ولعلَّ صاحب كلِّ رفقة في الجنَّة يُعنى برفقتِهِ، ويوليهم اهتمامَهُ وتقديره.

أهلُ الجنَّةِ يُكرم بعضهم بعضًا، ويَتَحَبَّب إليه، وقد هيَّأهم إيمانهم لذلك

إيثارُ التَّعبيرِ بالاطِّلاع دونَ النَّظر:

الدَّعوةُ إلى الاطِّلاع في هذا المقام أبرعُ مِنَ الدَّعوة إلى مجرَّد النَّظر؛ فالنَّظرُ توجيهُ الناظرين لرؤية المنظورِ مطلقًا، أمّا الاطِّلاع، كأن يقال: ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾، فيفيد معنى النَّظرِ وزيادة، من تلك الزيادة التَّنويهُ برفعةِ منزلةِ المطَّلعين على المطَّلَع عَليهِ، فـ "الجنَّة عاليةٌ، والنّار هاويةٌ، قال: فيريهُ اللهُ شريكَهُ في وسط الجحيم، من بين أهل

من نعيمِ أهلِ الجنَّة اطِّلاعهم على أهل النّار

النّار، فإذا رآه المؤمنُ؛ عرفَهُ، فيقول: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾"[1]، و"اطِّلاع أهل الجنَّة على أهل النّار ومعرفة مَن فيها - مع ما بينهما من التَّباعد - غيرُ بعيدٍ، بأن يَخلُق اللّهُ تعالى فيهم حِدَّةَ نظرٍ، ويُعرِّفَهم مَن أرادوا الاطِّلاع عليه، ولعلَّهم إذا أرادوا ذلك؛ وقَفوا على الأعراف، فاطَّلَعوا على مَن أرادوا مِن أهل النّار، وقيل: إنَّ لهم طاقاتٍ في الجنَّة ينظرونَ منها مِن عُلوٍّ إلى أهل النّار"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾:

من خصائص النَّظم الكريم هنا صياغةُ ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾ اسمَ فاعلٍ؛ لأنَّ عطاءَ الاسميَّة يتَّسق مع تقديم ضميرِ ﴿أَنتُم﴾؛ إذ كلاهما يُشعرُهم بقوَّةِ رغبةِ المتكلِّم في اطِّلاعهم معهُ، ومشاركتهم إيّاه فرحتَهُ بنجاتِهِ من التَّأثُّرِ بكفر قرينِهِ الكافرِ، ورفعة منزلتِهِ دونه، وعمق إحساسه بثبوت ذلك حتى كأنَّه قائمٌ حاصل منهم لا شكَّ فيه.

الصّيغةُ الصَّرفيَّة تتيح للمتكلِّم إرسالَ معانٍ مكثَّفة لا تؤدَّى إلّا بعدَّة جُمَلٍ

الغرضُ من حذف متعلَّق ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾:

حُذِفَ متعلَّقُ اسم الفاعل ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾، ولم يَنُصَّ على ماذا يطَّلعون؟ لأنَّ السياقَ يقود إلى المحذوف، ويوجِّه إلى الاطِّلاع إلى مصير القرين الكافرِ، الَّذي كادَ أن يرديَهُ معه إلى الجحيم، وذلك الإيجازُ النّاضح بالمحذوف يفيد أنَّ حديثَ أهل الجنَّة يُبنَى على اللَّمح، ويخلو من الثَّرثرةِ؛ كنايةً عن وفرة ذكائِهم، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون: 3]، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا﴾ [مريم: 62]، كما أنَّ في طيِّ ذلك المتعلَّق "على أهل النّار لننظره فيهم؟"[3]؛ تطهيرًا للسّياق والمقام من ذِكر النّار، وتَحاشي التَّذكير بها.

حديثُ أهلِ الجنَّة يُبنَى على اللَّمح، ويخلو من الثَّرثرة

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 18.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 88.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 117.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ﴾:

(الفاء) في قولِهِ: ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ - أي: "فاطَّلع، أي: على أهل النار"[1] - تُصَوِّر سُرعةَ استجابتِهم له، وفوريَّة تحقيق رغبته بتلبية أهل رفقته في الجنَّة له، وذلك يتَّسق مع قولِهِ تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ [الزخرف: 71]، (والفاء) وإن كانت داخلةً على فعلٍ يتعلَّق به هو، غير أنَّ المَقام يقتضي أنَّهم شاركوه الاطِّلاع، ولكنَّه بادَر لِمحلِّ الواقعة الَّتي حكاها عن قرينِهِ من نفسِهِ هو، وبهذا تتجلَّى دقَّةُ النَّظمِ القرآنيِّ في ترجمة الخواطرِ النَّفسيَّة، وأدائها في إيصال المعنى، و(الفاء) قد تُؤذنُ بمحذوفٍ، والتَّقدير: "فيقول أصحابُهُ: اطَّلِع أنتَ، فإنَّك أعرفُ به منا"[2] ﴿فَٱطَّلَعَ﴾.

من خصائص النَّظمِ الكريم المحافظةُ على أدقِّ الخواطر في إيصال المعنى

لطيفةُ الاكتفاءِ في الآية:

"في قوله: ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ اكتفاءٌ، أي: فاطَّلَع، واطَّلَعوا، فرآه، ورأوهُ في سواء الجحيم؛ إذ هو الذي عرض عليهم الاطِّلاع ليعلموا تحقيق ما حدَّثهم عن قرينه، واقتصر على ذكرِ اطِّلاعه هو دون ذكر اطِّلاع رُفقائه؛ لأنَّه ابتدأ بالاطِّلاع؛ ليُمَيِّز قرينَه، فيُريه لِرُفَقائه"[3]، وقد يكون هذا الفعل (اطَّلَع) إخبارًا عن اطِّلاع كلِّ واحدٍ منهم في نفسِهِ[4]، وإلى ذلك ففي الإخبارِ باطِّلاعه وحده تركيزٌ على بيان غِبطتِهِ هو، وكأنَّ إكرامَهُ وإكرامَ كلِّ مؤمن في الجنَّة يكون على انفرادِهِ في موضع اعتبارٍ وتقديرٍ؛ إذ يُميِّز الإيمانُ صاحبه، ويوليه حفاوته الَّتي يستحقُّ.

لكلِّ مؤمنٍ في الجنَّةِ اعتبارُهُ المتميِّز على انفرادِهِ، وحفاوته التي ينالها وافيةً

ويدعم ذلك انفرادُ كلِّ واحدٍ من الكفّار في عذاب النّار، وشعوره بأنَّه أشدُّهم عذابًا، بل إنَّه يُعذَّب في النّار وحده، فيزيده ذلك

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 89.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 142.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 117.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 564.

الشُّعور إيلامًا، فعَنِ البَراءِ ﷺ قال: "إذا أرادَ اللّهُ ﷻ أنْ يُنَسِّي أهلَ النّارِ؛ جَعَلَ لِلرَّجُلِ مِنهُم صُندوقًا عَلى قَدْرِهِ مِنَ النّارِ... فَما يَرى أنَّ في النّارِ أحَدًا غَيْرَهُ"[1].

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَرَءَاهُ﴾:

رؤيـــةُ المـؤمـنِ تـعـذيبَ الـكـافـرِ في النّار بِرٌّ بحقِّ صبره واحتماله مـنـه تـجـهـيـلـه وتعنيفه

(الفاء) في قوله: ﴿فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ عاطفةٌ تعقيبيَّةٌ، تَدُلُّ على ظهورِ أمر القرين الكافر في النّار، وعدم خفائهِ بالنِّسبة لهذا المؤمن، وأنَّه لم يبذل جهدًا ووقتًا في الوصول إليه، وفي ذلك بِرٌّ بحقِّه، ومبالغةٌ في إكرامِهِ؛ لِما صبر عليه، وجاهَد وتحمَّل منه تجهيلَهُ وتعنيفَهُ في الدُّنيا، وإشعارٌ له بالاغتباط بكرامة اللّه تعالى له، ونيله كرامةَ الإيمان.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل (رآه):

أهـــلُ الـجـنـانِ يُـزَوَّدون بالقدرةِ عـــلى رؤيـــةِ خصوم العقيدة وهـــم يـصـلـون الجحيم

(الرؤيةُ) في الفعلِ (رآه) رؤيةٌ بصريَّة لا غَبَشَ فيها، مع بُعدِ ما بين المنزلتَينِ، وبوْنِ النُّزُلَين، فهذا في دار النَّعيم، وذلك في أعماق الجحيم، ويا بُعد ما بينهما، وذلك يكشف عن إمكاناتِ أهلِ الجنان، وما يُزَوَّدونه من أسبابِ النَّعيم، والقدرة على الاطِّلاع على خصومِهم في العقيدة والإيمان، إذ يَصلَون العذابَ هنالك في أعماق أوديةٍ يُهْوَى بِهم فيها سبعين خريفًا، والتَّعبيرُ بالماضي دلالةٌ على التَّحقُّق واليقين.

معنى ﴿فِي﴾ من قوله: ﴿فِي سَوَآءِ﴾:

تـورُّطُ الكافرِ في الآخـرة أسباب الـعـذاب وعـدم فَكاكه منه

يفيدُ حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ معنى الظَّرفيَّة، ليُسهمَ في بيان تورُّطِ الكافرِ في وسط العذابِ ومنتصفِهِ الجحيم، ممّا يقرِّر عدم فَكاكِهِ منه ألبتة؛ لِما للطَّرَف من احتمال الخروج والخلاص، بخلاف الوسطِ الَّذي يَبعُد معه الخلاص، وذلك المنظرُ الَّذي رآهُ العبدُ النّاجي يزيده اغتباطًا بِنعمة ربِّه تعالى

(1) البيهقي، البعث والنشور، بَابُ مَا جَاءَ فِي ثِيَابِ أَهْلِ النَّارِ وَسَلاسِلِهِم وأَغْلالِهِم، ص: 300، برقم: (539).

وشعورًا بعظمة فضلِهِ عليه؛ فبينما هو في أعالي الجنان ينحطُّ قرينُهُ إلى أعماق الجحيم، ويتوسَّطه، فيحيط به العذابُ مِن كلِّ الجهات إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروف، والعياذ بالله تعالى.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿سَوَآءِ﴾:

الكافرُ يُعاقَبُ بتوسُّط الجحيم عـدلًا، لا ظلم فـيـه، ويـكـون أمره مفضوحًا

النَّظمُ الكريم آثرَ التَّعبيرَ بمفردة ﴿سَوَآءِ﴾ في قوله: ﴿فِي سَوَآءِ﴾ دون (وسط)؛ لِما تنشرُهُ من إيحاءاتٍ إضافيَّةٍ أخرى بارعة، زائدة على دلالات (وسط)؛ منها أنَّ ﴿سَوَآءِ﴾ تُفيد أنَّ القرين يُعاقَبُ بتوسُّط الجحيم عدلًا، لا ظلم فيه، فمِن معاني ﴿سَوَآءِ﴾ العدلُ، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ [آل عمران: 64]، كذلك تفيد ﴿سَوَآءِ﴾ معنى الظُّهور والبيان، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۚ﴾، فتُلمِحُ إلى افتضاح وضعِ الكافرِ، إلى غيرِ ذلك ممّا لا تفيدُهُ كلمة (وسط) من دلالات.

معنى (ال) في ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾:

كـلُّ جـحـيـمٍ لا يُعَدُّ جحيمًا إذا قيس بالجحيم الأخرويِّ

(ال) في ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾ عهديَّة؛ إذ تختصُّ جحيم الآخرة في الأذهان بالذِّكر حين يُعرَّف بها، وتستحضر خطورته، ويتملَّكها الرُّعب والفزع؛ إذ ربّاهم الوحيان الشَّريفان على رهبتِهِ، والعمل للنَّجاة منه، وتعريف ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾ بـ (اللام) يجعل كلَّ جحيم سواه دونَهُ بكثير، ولا يُعَدُّ جحيمًا؛ إذا قيس به، فهو ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾ الأبديُّ الخالد؛ لذلك تنصرفُ أذهانُ العبادِ إليه حين يُعرَّف بـ (ال)، وقد ورد في القرآن الكريم من أسماء النّار: جهنَّم، الجَحيم، لَظى، السَّعير، الحُطَمة، الهاوية، سَقر[1]، وقد اختُصَّ الكافر في هذا المقام بتوسُّط ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ لأنَّ الجحيمَ نارٌ على نارٍ، وجمرٌ على جمرٍ[2]، وما بها من الحرارة وشدَّتها، فالجاحمُ المكان الشَّديد الحرِّ، وبه سُمّيت الجحيمُ جحيمًا.

(1) اللَّبَابِيدي، معجم أسماء الأشياء، ص: 63.
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 278.

الغرضُ من إضافة ﴿سَوَآءِ﴾ إلى ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾:

بيانُ تَفاقُمِ العذاب على القرين الكافر

إضافةُ ﴿سَوَآءِ﴾ إلى ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾ تُسهم في بيان تَفاقُم العذاب على القرين الكافر، وكلَّما تفاقَم العذابُ عليه؛ أُفعِمَ المؤمن شعورًا بفضلِ اللّٰه تعالى عليه، وازداد اغتباطًا لتوفيقه ﷻ إيّاه إلى الإيمان به، والتَّصديق باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء، وما تلاه ممّا هو فيه من نعيمِ الجنانِ، وبذلك تتجلّى للمتلّقي سَعةُ البَوْنِ بين المؤمن والكافر وجزاءيهما في الآخرة.

سرُّ الفصلِ في الآية:

المؤمنون يذكرونَ مِحَنَ الدُّنيا، فيحمدونَ اللهَ تعالى على النَّجاة منها

فُصِلَت جملة: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ عمّا قبلها؛ لاستئنافها جوابًا لسؤال تُثيرُهُ الجملةُ السابقة في نفس المتلقّي، يقول: وماذا كان رَدُّ فِعل العبدِ الصّالح المصدِّق حينما رأى قرينَهُ يتلظَّى في سواء الجحيم؟ فتُسعِفه جملة: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ شافيةً، وافية بالجواب، وتُجيب "بأنَّه حين رأى قرينَهُ أخذ يوبِّخه على ما كان يحاولُهُ منه، حتى كاد أن يُلْقيَهُ في النّار مثلَهُ، وهذا التَّوبيخُ يتضمَّن تَنْديمَهُ على محاولة إرجاعِهِ عن الإسلام"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالقول، ومرجع الضَّمير فيه:

المؤمنُ ينطق بأفضالِ اللهِ تعالى، ويشيعها، ويحمده عليها

يفيد فعلُ القولِ ﴿قَالَ﴾ أنَّ العبدَ المؤمن نطق بتلك الجُمل مغتبطًا، شاكرًا لربِّه ﷻ أنْ نجّاه من هذا المصيرِ الأليم ومن التَّورُّط في أسبابه، وذلك يُرشُدُ إلى النُّطق بأفضالِ اللّٰهِ تعالى، وإشاعتها، وعدم كتمِها، وإن لم يسمَعْها المخاطَب الكافر في سواء الجحيم؛ فإنَّ اللّٰه تعالى يسمعها، فالأقلامُ تجري بالمنطوق، والمضمر سرٌّ لا يراهُ إلّا اللّٰهُ تعالى.

معنى (التاء) في قوله: ﴿تَٱللَّهِ﴾، ونكتتها:

"القَسَمُ بالتاء من شأنِهِ أن يقع فيما جواب قسمه غريب، كما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 117.

تقدم في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم﴾ [يوسف: 73]، وقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: 57]، ومحلُّ الغرابةِ هو خَلاصُه مِن شبكة قرينه، واختلاف حال عاقبتيهما مع ما كانا عليه من شدَّة الملازمة والصُّحبة، وما حفَّه من نعمة الهداية، وما تورَّط قرينه في أوحال الغَواية"[1]، والمقام هنا مقامُ امتلاءِ النَّفس بلوم القرين الكافر، واغتباطها بتوفيق الله تعالى ونعمةِ العصمةِ من الكفر والتَّكذيب باليوم الآخر، وتلك معانٍ جليلةٌ، ذاتُ أثرٍ في النَّفس عظيم؛ لذا استُعمِلت تاء القسم دون أختيها الواو والباء.

القَسَمُ بالتّاء يبرع في مقامات اللّوم والتّوبيخ وإن يكن في الآخرة

نكتةُ القَسَمِ بالاسم الجليل (الله):

لمّا كان المقامُ هنا مهيبًا - إذ يتعلَّق بأصل الجحيم - ذا أثرٍ عظيم في نفس العبد المؤمن؛ فقد فرض عليه أن يكونَ القَسَم بالاسم الجليل (الله)، وفي ذلك اتِّساقٌ لاصطفاء حرف القسم (التاء) - كما سبق القول - فتآزرَتْ تلك العناصرُ التركيبيَّة على بيان هَوْل ما رأى في ﴿سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ ممّا حلَّ بالقرينِ الكافر من صنوف العذاب المتكاثرِ الذي ينهض ببيان تفاصيله الوحيان الشَّريفان.

المقامُ المهيبُ يقتضي أن يكونَ بالاسم الجليل

معنى ﴿إِن﴾ في قوله: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾:

﴿إِن﴾ في قوله: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ هي المُخَفَّفة مِن الثَّقيلة، "وهي تدخل على (كاد)، كما تدخل على (كان) ونحوه: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ [الفرقان: 42]... والإرداء: الإهلاك[2]، والمعنى: "إنَّك قاربت أنْ تُفْضي بي إلى حال الرَّدَى بإلحاحك في صَرْفي عنِ الإيمان بالبعث لِفَرْط الصُّحْبة"[3].

علَّةُ التَّعبيرِ بالفعل (كاد) ماضيًا:

الفعل (كاد) في جملة: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ يدلُّ على مقاربة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 117.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 45.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 118.

شـــدَّةُ إغـــواءِ الكفّار، ورحمةُ الـلـه بتثبيت المـؤمـنـين على الهدى

صرف القرين الكافر صاحبَهُ المؤمن - في الدُّنيا - عن طريق الحقِّ والإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، "أي: هممتُ، وأردت أن تهلكني، وتغويني؛ لو أجبتك، واتَّبعتك فيما أدعوتني، إليه وسألتني"[1]، وفي تلك المقاربةِ كنايةٌ عن عُمقِ الصُّحبَة الَّتي كانت بينهما، وعن طول إلحاح الكافر على صرف المؤمن عن طريقِ الإيمان، وأنَّه كاد يُرْديه، ويُهلِكُه بالكفر لولا نعمةُ ربِّه.

وجهُ مرجعِ ضمير المخاطَبِ في ﴿كِدتَّ﴾:

ازديـــادُ حسرةِ القرين الكافر، أو خطابُ المؤمن اغتباطًا بنعمة ربِّهِ عليه

المخاطَبُ بقول المؤمن: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ هو القرين الكافر المذكورُ في قوله قبلُ: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ [الصافات: 51 - 52]، وهو بحسبِ العادة لِبُعد ما بينه في النّار وبين المؤمن في الجنَّة لا يسمع هذا الخطاب، لكن ربَّما يسمع بحسب قوانين الآخرة، فيصلُهُ صوت المؤمن، وهو في سواءِ الجحيم، فَتَتَفاقَم عليه المعاناة، وتتزاحم عليه، فيزدادُ ما بين وضعيهما من بَوْن، هذا في غاية السَّعادة والغبطة، وذلك في نهاية العذابِ والحسرةِ، وقد لا تسمحُ قوانين الآخرة بتوصيل خطاب المؤمن للكافر في النّار، ويكون خطابُ المؤمن فضفضةً بذلك الكلام؛ اغتباطًا بنعمة ربِّهِ ﷻ.

معنى (اللام) ودلالتها في قوله: ﴿لَتُرْدِينِ﴾:

(اللام) في قوله: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾، "هي اللّام الفارقةُ بين ﴿إِن﴾ المُخَفَّفَةِ والنّافية[2]، أي: "إنَّك قاربت أنْ تُفْضي بي إلى حال الرَّدَى بإلحاحِك في صَرْفي عنِ الإيمان بالبعث لِفَرْطِ الصُّحْبة"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بمفردة (تردين) مضارعًا:

في التَّعبيرِ بمفردةِ (الردى) دلالةٌ على الإهلاكِ وزيادة، هي تقييد

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 565.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 45.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 118.

الإهلاك بالإيقاع من علوٍّ، فقوله: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾، أي: "توقعني في الرَّدى وهو الهلاك، وأصل الرَّدى: الموتُ ثمَّ شاعت استعارتُهُ لسوء الحال تشبيهًا بالموت لما شاع من اعتبارِ الموت أعظمَ ما يصاب به المرءُ"[1]، ومن براعةِ صوغِ الرَّدى مضارعًا (تردين) هنا استحضارُ الماضي كأنَّه مَعيشٌ في وقت التَّكلُّم، وتوصيف الحاضر لو كان أجاب القرين الكافر إلى مطلبِه؛ إذ قال له: كان يقول له: اترك دينك، واتَّبعني[2].

القرآنُ الكريمُ يصطفي لمعانيه من المفردات أدقَّها دلالة عليها

بلاغةُ المجازِ العقلي في الفعل (تردين):

في إسنادِ المؤمنِ فِعل الرَّدَى إلى قرينه الكافرِ في قوله: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ إذ إنَّ الذي يقدر على الإرداء هو اللّه تعالى، أمّا الكافُ؛ فسببٌ فيه فقط، ومع علم المؤمنِ بذلك وإيمانه به أسندَهُ إلى الكافر، ولطيفةُ ذلك تنزيهُ اللّهِ تعالى عن إسنادِ الشَّرِّ إليه، كما قال الرَّسولُ ﷺ في دعاءِ استفتاحِ الصَّلاة: "والخَيرُ كُلُّهُ في يَدَيكَ، والشَّرُّ لَيسَ إلَيكَ، أنا بِكَ وإلَيكَ، تَبارَكْتَ وتَعالَيتَ، أستَغْفِرُكَ، وأتوبُ إلَيكَ"[3].

مِن أدبِ المؤمنِ تنزيهُ اللهِ تعالى بعدم إسنادِ ما ظاهرُهُ الشَّرُّ إليه سبحانه

براعةُ المجازِ المرسل في (الردى):

عبَّر عن السَّببِ بالمسبَّب؛ لأنَّ الرَّدى هو الثَّمرةُ المرَّةُ لاستجابته له؛ لو كان استجاب، وإنَّما بالأعمال بمآلاتها، وإلى ذلك فمُفْرَدَةُ الرَّدَى معبِّرةٌ، وصوغها مضارعًا متَّسِقٌ، أو أنَّ المعنى: "واللّهِ لقد كدْتَ أن تُغوِيَني، فأنزلَ منزلتك"[4]، فذكر الفعل الأخير (الرَّدى)، وأراد سببه الأوَّل (الغَواية)؛ والثَّمرة على كلِّ حالٍ هي إيرادُه موارد الرَّدى، فالمجازُ المرسل في هذا السياق أبلغُ مِنَ الحقيقة.

الأعمالُ بمآلاتها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 118.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 564.
(3) مسلم، صحيح مسلم، كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وقَصْرِهَا، بَابُ الدُّعَاءِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ وَقِيَامِهِ: 1/ 535 برقم: (771).
(4) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 455.

الغرضُ من حذف الياءِ في ﴿لَتُرْدِينِ﴾:

تَحاشي إيقاعِ فِعل الرَّدى على ضمير المتكلِّم وتنزيهه منه حتّى في اللَّفظ

"قرأ الجمهورُ ﴿لَتُرْدِينِ﴾ بنونٍ مكسورة في آخرِه دون ياءِ المتكلِّم على التَّخفيف، وهو حذفٌ شائع في الاستعمالِ الفصيح، وهو لغةُ أهلِ نجدٍ، وكُتِبَ في المصاحف بدون ياءٍ، وقرَأَهُ ورشٌ عن نافع بإثبات الياءِ، ولا يُنافي رسمَ المصحفِ؛ لأنَّ كثيرًا مِن الياءات لم تُكْتب في المُصحف، وقرأ القُرّاء بإثباتها، فإنَّ كُتّاب المصحف قد حَذفوا مُدودًا كثيرة من ألِفاتٍ وياءاتٍ"[1]، وفي حذف (ياء) المفعول من الفعل ﴿لَتُرْدِينِ﴾ مراعاةٌ لرؤوس الآي المبنيَّةِ على حرف النّونِ المسبوقة بياء المدِّ، وإلى ذلك يُحقِّق حذفُ المفعول هنا تَحاشي إيقاع فِعل الرَّدى على ضمير المتكلِّم وتنزيهه منه حتّى في اللَّفظ؛ مبالغةً في بيانِ شدَّةِ العذاب المعَبَّر عنه بالرَّدى في الفعل ﴿لَتُرْدِينِ﴾.

غرضُ توكيدِ الخبر في: ﴿تَٱللَّهِ﴾... ﴿لَتُرْدِينِ﴾:

قد يُراعى التَّوكيدُ حالَ المتكلِّم لا المخاطَب، وذلك في حالة عدم إنكاره

توكيدُ الخبرِ في جملة: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ يعكس الحالةَ النَّفسيَّة للمتكلِّم لا للمخاطَب؛ لأنَّ المخاطَب هنا لا يَشُكُّ حينئذٍ في مضمون هذا الخبرِ، وقد عايَنَهُ، وعالجَهُ بنفسِهِ، فذلك التَّوكيدُ يُترجِم شدَّةَ هوْلِ ما رأى المتكلِّم المؤمن مِن مصير القرين الكافر، كما يؤكِّد ما سبقت الإشارةُ إليه من طول الإلحاحِ عليهِ في نبذ الإيمان واعتناق ملَّة الكُفر، واحتيالِهِ عليه بكل حيلةٍ لِثَنْيِه عن إيمانِهِ، إلى درجة مقارَبة إضلالِهِ وإيرادِهِ مواردَ الهلاكِ.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَلَوْلَا﴾:

وجوبُ اعتقادِ نسبة التَّوفيق إلى الله تعالى، والتَّبرُّؤ من نسبتها إلى النَّفس

(الواو) في قوله: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ عاطفةٌ؛ إذ قَرَنَتْ بين دلالتين قصَدَها المتكلِّم المؤمن هما: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾، و﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ المهلكين المعذَّبين، ولطيفةُ ذلك نَفْيُ توهُّم اعتقادِ المتكلِّم نسبة التَّصدّي لِمحاولات القرين الكافر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 118.

إلى نفسِهِ، وإثبات أنَّه التَّوفيق الإلهيُّ والعظمة الرَّحمانيَّة والنِّعمة الرَّبّانيَّة، وذلك المناسب لإتباع جملة: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ جملةَ: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾، والرَّبط بينهما بالواو العاطفة.

دلالةُ الأداة (لولا):

الاعتراف الصَّريح بفضل اللّه تعالى ونسبة الخير إليه

(لولا) حرفُ شرطٍ يفيد امتناعَ وقوع الجواب: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾؛ لامتناع وقوع الشَّرط ﴿نِعْمَةُ رَبِّي﴾، أي: إنَّ نعمةَ ربّي وعصمتَه إيّاي هي الَّتي حالت دون سقوطي في شباك محاولاتك ثَنْيي عن الإيمان باللّهِ واليوم الآخر وما فيه من حساب ونعيم وعذاب، وفي ذلك اعترافٌ صريحٌ بفضل اللّه تعالى ونسبة الخير إليه ﷻ.

نكتةُ التَّعبير بـ﴿نِعْمَةُ﴾، والإضافة إليها:

أعظمُ النِّعم أنْ يُعصَم العبدُ من الكفر، ويوَفَّق للإيمان، ويُكرَّم بالجنان

المقصودُ بالنِّعمة هنا معناها الأعمُّ، الشّامل للعصمة والحفظ والكرامة والإسلام، وما إليها مِن نِعَم، قال الزَّمخشريُّ: "﴿نِعْمَةُ رَبِّي﴾ هي العصمة، والتَّوفيق في الاستمساك بعروة الإسلام، والبراءة من قرين السّوء، أو إنعام اللّه تعالى بالثَّواب، وكونه من أهل الجنَّة"[1]، وجاء إفرادُها جريًا على عادة الذِّكر الحكيم في نسبتها إلى موليها الأعلى ﷻ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: 18]، فبرغم عدم القدرةِ على إحصائِها أُفرِدَت، وفي ذلك كنايةٌ عن تنوُّع منافعِ النِّعمة الواحدة على العبدِ؛ إذ لا يطيق إحصاءَها؛ لِما في منافِعِها ما يعلمُهُ، وما لا يعلمُهُ، وفي إضافة ﴿نِعْمَةُ﴾ إلى ﴿رَبِّي﴾ إشارةٌ إلى معاني التَّربية والتَّعهُّد، وفي ذلك مزيدُ امتنانٍ من العبد المؤمن الناجي من العذاب لربِّهِ الكريم ﷻ، فقد عصَمَهُ مِنَ الكفر في الدُّنيا، ووفَّقَهُ على الإيمان، ثمَّ آواهُ إلى الجنانِ والنَّعيم في الآخرة.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 45.

الغرضُ مِن حذف خبر (لولا):

قـد يُـبَـطِّـئُ ذِكـرُ العنصرِ الـلُّـغـويِّ من الزمن المطلوب تسريعه

خبر (لولا) في قول المؤمن: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ محذوفٌ، والتَّقدير: "ولولا نعمةُ ربي تَدارَكَتْني، أو أنقَذَتني ونحوه؛ لكنتُ معك في النّار"[1]، وتُلْمَحُ في حذف الخبرِ هنا إفادةُ عموم بركات ﴿نِعْمَةُ رَبِّي﴾؛ فقد عصمتني مِنَ السُّقوط في الكفر، ومنحتني الإيمان، وقوَّتْني على البقاءِ عليه، وما على ذلك، وفي حذفِ خبر (لولا) تعجيلٌ إلى نفي ما بعده ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾، وذلك لِمحلِّ خطورتِهِ عنده، وبيان امتنانه به.

معنى (اللام) في قوله: ﴿لَكُنتُ﴾:

توفيةُ النَّفس حـقَّـهـا مِـنَ الغبطةِ

(اللام) في جملة: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ رابطة لجواب لولا، مفيدة التوكيد، كأنَّه قال: ولولا نعمةُ ربي لقد كدتَ أنْ تغويني، فأنزل منزلتك[2]، ومِن عطاء هذه (اللام) دَعمُ الحالة النَّفسيَّة للمتكلِّم، وتوفيتها حقَّها من الغبطة التي يَشعر بها المتكلِّم، مِن حيث الخطورةُ التي عايَنها في سواءِ الجحيم ممّا يغيظ القرين الكافر.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكون الماضي في (كنت):

للمقامِ والسّياق عـطـاءاتُـهـمـا وإشاراتُهما وإن لم يُنطَق بها

عبَّر المؤمنُ النّاجي عن مآلِهِ في الآخرة - لو كان قد أطاعَ القرين الكافر في الدُّنيا - بالكون الماضي، فقال: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾، ولم يقل: (لَأُحْضِرْتُ)؛ إشارةً إلى أثَرِ اعتناقِ عقيدة الكفر في الدُّنيا على مصير صاحبِهِ في الآخرة، أمّا التَّعبير بقوله: (لَأُحضِرْتُ)؛ فيطوي تلك المرحلةَ الَّتي حرص المتكلِّم على استدعائها؛ لكونها المنطلقَ الحقيقيَّ إلى المآل الأخير، ويُفهم من جملتَي الآيتين: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أنَّ القرين الكافرَ ما أرْداه، قائلًا: إنَّه تعالى "تفضَّل عليَّ، ورحمني، فهداني

(1) الإبياري، الموسوعة القرآنية: 4/ 372.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 455.

للإيمان، وأرشدني إلى توحيده: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 43]"[1]، فللمقام عطاءاتُهُ وإشاراتُهُ، وإن لم يُنطَقْ بها.

معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ تبعيضيَّةٌ، توحي بكثرتهم، وتتَّسق دلالتُها مع نصوص الذِّكر الحكيم مِن مثل: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 116]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: 103] إلى آخره، فـ ﴿مِنَ﴾ هنا تنمُّ عن أنَّ المُحضَرين في العذابِ مِن الكثرةِ بحيثُ إنَّ كثرتَهم تَطْويه، فلا يكاد يظهرُ بينَهم.

المُحضَرونَ في العذابِ يوم القيامة هم الكثرةُ الكاثرة

دلالةُ (ال) في ﴿ٱلْمُحْضَرِينَ﴾:

(ال) في ﴿ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ عهديَّةٌ، أي: ﴿ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ "الذين أُحضِروا العذابَ كما أُحضِرَتْهُ أنتَ وأمثالك"[2]، الذين رآهم المتكلِّم المؤمن مع قرينه في سواء الجحيم يعذَّبون، ويعالجون الصَّديد والحيّات، وما هنالك مِن صنوف المعاناة.

سرُّ التَّعبيرِ بالإحضارِ، وصوغِهِ اسمَ مفعول:

آثرَ المتكلِّمُ المؤمن التَّعبيرَ بمفردة (الإحضار) دون التَّعذيب، فقال: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾، ولم يقل: (من المكذِّبين)؛ لأنَّ مجرَّد الإحضارِ يستلزم التَّعذيبَ، فـ "أحضر لا يُستعمل مطلقًا إلّا في الشَّرِّ"[3]، ففيه كنايةٌ عما يستلزمُهُ من عقوبات.

الفعل (أحضر) لا يُستعمل مطلقًا إلّا في الشَّرِّ، فهو يستلزمُ العذاب

الغرضُ من حذفِ متعلّق ﴿ٱلْمُحْضَرِينَ﴾:

الغرضُ من حذْفِ متعلِّق الإحضار - أي: لكنتُ من المحضرين في العذاب، أو "في النار مثلك"[4] - تَحاشي ذِكر النّار، وذكر ارتباطه

قد يُكتفى بذكر المتعلّق دون متعلِّقِه؛ تحاشيًا من ظلال كريهة قد تفوح منه

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 16.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 45.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 84.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 334.

بها ولو لفظًا؛ فاكتفى بذكر المتعلِّق دون المتعلَّق، "وفي هذه الآيةِ عِبرةٌ من الحذرِ من قرناء السّوء، ووجوب الاحتراس ممّا يَدْعون إليه، ويُزَيِّنونَهُ من المهالك"(1).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاطِّلاع والنَّظر:

الاطِّـلاع الرؤيةُ مِن عُلوٍّ، والنَّظر الرؤية مطلقًا

اطَّلَعَ عَلَى الشَّيْءِ، وطَلَعَ عَلَى الأمر يَطْلُع طُلوعًا: عَلِمَهُ، وطالَعَهُ إيّاه، فَنَظَرَ ما عِنْدَهُ(2)، والمَطْلَعُ: موضعُ الطُّلوعِ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ [الكهف: 90]، وعنه استُعير: طَلَعَ علينا فلانٌ، واطَّلَعَ، قال تعالى: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾(3)، أي: هل أنتم تحبّون أن تطَّلعوا، فتعلموا أين منزلتكم مِن منزلة أهل النّار؟ فاطَّلع المسلمُ، فرأى قرينَهُ في سواءِ الجحيم(4)، والنَّظر في الأصل تقليبُ البصرِ، وتوجيهه إلى جهةِ المنظور، فهو بمعنى الرُّؤيةِ، ثم يُستعمل في تقليب البصيرة، فيكون بمعنى التَّفكُّرِ"(5).

الإرداء والإهلاك:

الـرَّدَى الإهـلاكُ بِقيد الانـحـدار، والإهلاك بلا قيد

تُفسِّرُ المعاجمُ (الرَّدَى) بالهلاك، ولا تكادُ تفرِّق بين دلالتَيهما، يقول ابن منظور: "الرَّديُّ: الهالِكُ، وأرداهُ اللّهُ، وأردَيْتُه، أي: أهلكتُه، وفي التَّنْزيلِ العَزيز: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾: مَعْناهُ لتُهْلِكُني، وفيه: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرَدَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: 16]"(6)، ويُمكن التَّفريقُ بَينهما بأنَّ معنى الرَّدى: الهلاك مقيَّدًا بقيد الانحدار والسُّقوط، ويتَّضح ذلك في معنى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرَدَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: 16]، أمّا الهلاك؛ فهو الموتُ أو الضياع مطلقًا، فالرَّدى أعمُّ والهلاك أخصُّ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 119.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (طلع).
(3) الراغب، المفردات: (طلع).
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 513.
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (نظر).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (ردي).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والأربعون،
سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 48 ، 810 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-07-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 48 : المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-07-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1101030 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»